محمّد عبد الحيّ

على أبواب سنّار

الرؤيا الاولى

توهجت سواحل الرؤى
انا على ساريتي معلقٌ ،
نسران ازغبان – ينبشان في البعيد – مقلتايَ ،
والسماءْ
بوابةٌ جميلة خضراء
تطلّ منها اعين الملائكة
والحب والغناءْ .
يا شاعري اصعدْ الى سمائكا ،
توهج الربيع في غنائك الفتيّ ، واورقت اصابع الاحجارْ
الليلة انسربت يا حبيبتي
سواحل الرؤى توهجت
تفتحت نوافذاً لونها زمرد النهارْ

الليلة يستقبلني اهلي
الصوفيون الوثنيون ،
ترتيل القرآنيات الاخضر يغلي
فوق سعار الطبل المجنون
اهدوني مسبحة من اسنان الموتى ،
ابريقاً جمجمةَ ،
مصلاةً من جلد الجاموس .
الليلة يستقبلني اهلي ، ذبحوا لي
وعلاً صحراويّا
عمدت غنائي بدماهُ

وتوضأت به . الليلة انفاس الغاب الافريقي
تتفصد ملء عظامي عرقا عربيّا ،
عاصفةً من رمل الربع الخالي ،
الليلة مَدّاحي ، طَبّالي
اعتنقا
صارا شمسا واحدةً ، جسدا ، روحا ، صحراء ، غابةْ
اغنيتي غناها الوثن الشامخ في جرم المسجد
اسكرها ايقاع الطبل وتنغيم الربّابةْ

واغمض الفنارْ
عيونَه ، وغاب ساحل الرؤى
وعدت ، يا حبيبتي ، نعلاي من انهار
افريقيا . قد عدت يا حبيبتي —
هديتي معي
ولي عمامة من منسج النهارْ
قد عدت ، يا حبيبتي ،
وجهي بلا ستارْ

العودة الى لغة القبيلة

« افتحوا ليَ ابواب المدينة
انا يا حرّاس منها ،
كان لي بيت هنا ، اهل ، وفتيانٌ
يصدّون سهام الشر عني
انا يا حراس فيها قد تربيت ، ترعرعت صبيّا
سمهريّ الجسم ، شمسيّ المحيّا
عرفتني وعلى رأسي طاقية قطنٍ
اشهد الفرسان مأخوذا ، اغني للدعاش الحلو ينثال بشارات المطرْ
علمتني امسك الشمس بكفيّ ،
وارتاد مفازات الخطرْ .
كان لي بيت هنا ، اهل ، وفتيانٌ

يصدّون سهام الشر عني
كسيوف الهند كانوا ،
كشباب الشمس كانوا ،
كالهٍ اخضر الجبهة كانوا ،
غير اني
ذات يوم قد ادرت الوجه عنهم
كافراً تهت زمانا في دهاليز الحضارات الغريبة
ضائعَ الاسم بلا سمت ولا وجه تبعثرت على ارض الحضارات الغريبة
افتحوا ليَ يا حرّاس سنّارَ
افتحوا ليَ ابواب المدينة
افتحوا ليَ ابواب المدينة
افتحوا ليَ ابواب المدينة » .
« عربي انتَ ؟ »
« لا » .
« او زنجي انتَ ؟ »
« لا » .
« انا منكم . كافراً تهتُ . حدوتُ العيس في الصحراء ،
غنيت لهاث الغاب والمستنقعاتْ
انا منكم ، ولكم ، فيكم قد عرفت صباحات الحياةْ
نهركم يطفو بقلبي قمراً يطفو شذاهْ
انا منكم ، ودمي من دمكم
مطرٌ من غاب افريقيا جرى ملء عروق من صحارى
وثنيّا دشرت منه الوهية صوفيّ رأى وجه الالهْ » .
« اننا نفتح ، يا طارق ، ابواب المدينة
ان تكن منا حملناك على اعيننا
وحميناك ، وان كنت غريبا بيننا
اننا نسعد بالضيف ، نفديه بارواح وابناء ومالْ
فتعالْ .
قد فتحنا لك ، يا طارق ، ابواب المدينة
قد فتحنا لك ، يا طارق ، ابواب المدينة » .

اعرفها ، يا وجهها البهيّ ، يا شبابها الرغيدْ
ما زال في دمي غبارها
روائح الطعام اذ تفوح تحت خيمة الضحى
تذكارها ، ووجهها الذي يموج بالحصيدْ .
يا روعة الشموس في عيون اهلها ،
الذين من عيونهم اطلّ في اشراقة جليلة.
قبيلتي هم ، ولغتي الاصيلة .

طفلك العائد ، يا سنّار ، من ليل المتاهات الكريهِ
جائع العينين ، قومي قدّمي له خبز الشمس ،
قومي عانقيهِ ، دفئيهِ
بين ثدييك الكبيرين الخصيبين ، وغنّيه كي يناما
مخلب الغربة القاه زمانا
في مدينات غريبات بلا افئدة تسخو حنانا
صفعت ابوابها في وجهه الضائعِ ،
صدّته ، اشاحت عن تحاياه ، ولم تلقِ السلاما

« آه يا سنّار ، يا وجهي المضاعْ
لغتي انت ، وبيتي العامر الرغد الذي اعرفه ، يعرفني
عدت، يا سنّار ، مشبوب الاغاني ، شبقيّ الالتياعْ
باحثا في حضنك الدافىء عن ذاتي التي ضيّعتها من زمنِ »
« جرّحتك الغربةُ الشوهاء ، يا ابني تعالْ
ضيّعت ليلات حانات الحضارات صدى وجهك . يا ابني تعالْ
هذه امك ، كانت في انتظار
صهلة الفرس القادم من نزع القفار
هذه امك يا ابني تعال .
هذه امك يا ابني تعال » .

وفتحت ذراعها مدينتي ، وحضنها الرغيدْ
ودثّرتني بين لحمها الذي يفوح صندلا مطيّبا

مدينتي قد عانقت صبيّها المغتربا
تمخضت ، وولدتني من جديدْ .

الميلاد الجديد

الشارع الاسفلت مخضرّ العروق يعبّ من وهج البروق حدائقا
عبق الرصيف بخور لقيا السائرين تفجروا مجدا الهيّاً ، حلاوة عاشقَين تعانقا
رمح القبيلة غارز في الجنب يشعل في الدم الغافي غناء حارقا
الاعين الخجلى تودع دارَ عار الامسِ ،
تولد في ربيع الشمسِ ،
في افق يسيل مشارقا
نبتت شعيرات المداخن فوق صدره ، وهي ترزم ، تستفيض رواعداً وبوارقا
سحّاً ، وتسكاباً ، فكل عشية تطفو الزيوت دوارقا
في اعين المستقبلين تفتّح الدنيا تصوفَ غابةِ ،
وثنا ، وترتيلات قرآن عذابْ
يا اهل ودي ها هنا سنّار تولد من جديد ، لا حجاب يصدّ اشراق الشبابْ
العقد قد جمعت على خيط التوثب والسنى حبّاتُهُ
سنّار تولد من جديد في دمي ،
ايقاع مجدي ، خطو فجر حضارتي ،
جلمي ، وماسة غربتي ، ومنارتي .

الرؤيا الثانية

توهجت سواحل الرؤى ، تفتحت ، وازهرت ،
وهبطت من السما
اصواتُ اطفال صغار وملائكة
نعالها كانت هنالكا
غمائما وانجما .
شوارع الهروب اطفئت . حبيبتي معي
شذى ذراع في ذراعْ
حبيبتي ، هذه السهوب ملكنا ، فاضطجعي
في العشب والنجوم فوقنا

غابات اجراس تغوص في الشعاعْ .

رحم الشارع شمس تتمخض سياراتٍ ، سياراتٍ ، سياراتْ ،
هذي سنّار يفيض البشر عليها ،
يسحب اردية الالوان الحلواتْ
ضجّت اعراقُ الارض، رزيزُ المجد، ازيزُ الآلاتِ، الآلاتِ، الآلاتْ .
اعتنق العشاق نجوما ناعمةً ، ازواجَ حمامٍ ، اقمارا
فاتنتي في المرقص شمسُ ربيعٍ لا تتوارى
فاتنتي شمس ربيعْ
انهشمت احجبة الخوفِ ،
انهتكت اغشية الخجلِ ،
تجسّد وجه الجيل الغارق في التمييعْ .

تمهلي يا اجنح الرؤى ، تمهلي
أبصرُني اعود في المسا
حبيبتي معي تعودْ
والليل في انتظارنا
صفصافةٌ و عودْ
وجرسٌ يخبر عن صمودْ
اشجارنا في الريحِ ، هل تعودْ
الى الجذور نارُها ؟
فيشعل الربيعَ بالخضرة صمتُها وعارُها ؟